

تفاعل العمارة الدمشقية مع التراث المعماري

□ د. عفيف البهنسي*

في هذا البحث سنقوم بجولة سريعة في مدينة دمشق نقف خلالها أمام المنشآت العامة التي تعدّ الأنموذج الأكثر وضوحاً لتراث العمارة المحلية في تصاميمها المختلفة. وللحديث عن تفاعل هذه العمارة الدمشقية مع التراث المعماري الذي استمر شائعاً قرونًا طويلة، وبيان تحولاتها الحديثة.

المدينة التراثية

تتألف مدينة دمشق من المدينة الحديثة التي تحيط المدينة التراثية وقد احتوت النظام العمراني التراثي والعمارة التراثية، ضمن حدود الأسوار مع امتدادها في الصاحية والميدان.

لقد فرض مبدأ العمارة في بيئتها Architecture at home نفسه على تنظيم المدينة وبالعكس. وهكذا نرى المباني في الأحياء السكنية متراسة على بعضها، منكشمة على ذاتها، كما هي في الأزقة والحارات المتداخلة الضيقة. حيث يعتمد النظام العمراني مبدأ (التضام) أي تقارب مباني المدينة بعضها مع بعض بشكل متراس، لمنع تعرض الواجهات للعوامل الجوية، كما أن الاختلاف في ارتفاعات المباني سيؤدي إلى التخفيف من تأثير الشمس والرياح.

❖ مدير سابق للآثار والمتاحف.

وكان من نتيجة هذا المبدأ المتضام ، أن ضاقت الشوارع وأصبحت مجرد حارات أو نهج ضيقة ، تستوعب حركة الناس المشاة ، ونادراً ما تستوعب مرور العربات إذ لم يكن يحسب بعد حساب الحافلات وحاجتها إلى الشوارع العريضة. ومن جهة أخرى لعبت الطريقات الضيقة والمتعرجة في المدينة القديمة دوراً في حماية السكان من العواصف الجوية ، فهي تخترق الحرارة في الصيف وتحمي من البرودة والرياح في الشتاء

العمارة التراثية:

تتمثل جميع خصائص المسكن الدمشقي ، في بناء **قصر العظم** ومازال بحالة سليمة كشف عن ملامحه الأساسية التي كانت عليه منذ إنشائه في العام ١٧٤٩ بإشراف والي دمشق أسعد باشا العظم.

ويتألف قصر العظم من خمسة أقسام ، قسم المعيشة ، وقسم الاستقبال ، وقسم الخدم ، وقسم مرآب العربات ، والحمام. وندخل إلى القصر من باب واحد يؤدي إلى دهليز يتوزع في اتجاهين ، واحد إلى قسم الاستقبال ، والآخر إلى قسم المعيشة ، ومنه إلى قسم الخدم والمطبخ والحمام. وتشكل الأفنية الثلاثة رئات مليئة بالأشجار والورود.

وإذا كان هذا البناء هو النموذج الأكبر لعمارة البيوت السكنية إلا أن البيوت الأخرى كانت مؤلفة من طابقين اثنين ، ومن إيوان واحد يشرف على الفناء الداخلي ، وفي طرفيه قاعتان ذات سقف مرتفع حتى مستوى الطابق الثاني.

وتختلف خصائص البيت السكني عن خصائص المساجد المؤلفة من حرم وصحن.

وما زال **الجامع الأموي** النموذج الأقدم لبناء المساجد ، ثم جاء بعده الأسلوب الفاطمي ثم المملوكي وقد حافظا على أقسام البناء المسجدي (الحرم والصحن) وإن اختلف شكل المئذنة ، والقبة ، والزخرفة الداخلية ، وكان للمئذنة المملوكية طرازها المتميز تمثل في مئذنة قايتباي في الجامع الأموي ، ومئذنة القلعي ،

ومن أبرز المساجد التي أنشئت في العصر العثماني كان **التيكية السليمانية** المؤلفة من مسجد ذي مئذنة وقبة وصحن محاط بحجرات مخصصة لطلاب التكية ، ومن تكية صغرى ذات مصلى بدون مئذنة و من صحن محاط بحجرات أيضاً.

وهذه التكية بقسميها ، هي من تصميم المعمار العثماني الشهير سنان الذي أنشأ أولاً الخسروية في حلب . ، ولقد قام العطار الشامي بالإشراف على تنفيذ مخططات التكية السليمانية بدمشق في العام ١٥٢٠.

وتأثرت المساجد التي أنشئت في هذا العصر العثماني بهذا الأسلوب ، دون أن ترقى إلى مستواه ،

التراث المعماري وشرط التكيف مع البيئة والمناخ:

لا شك أن المناخ الذي يميل إلى الحرارة والجفاف وهو السائد في منطقتنا تطلب طريقة معمارية تتكيف مع ظروفه ، خدمة للإنسان سواء في الصيف حيث يحتاج الساكن إلى طريقة للتبريد يتجنب فيها تأثير الشمس والحرارة ، فيسعى إلى تسريب تيارات الهواء .أو في فصل الشتاء حيث لا بد من الاحتفاظ بالمكتسب الحراري الذي توفر عن طريق التمتع الأقصى بحرارة الشمس ، مع تقليل فقد الحرارة من المبنى.

وبصورة عامة سعى المعمار لتأمين التكييف الحراري والإضاءة والتهوية.

وكان لا بد من البحث عن رئة خاصة بكل مسكن، وكان الحل في (الفناء الداخلي) لتأمين الانفتاح على نور الشمس، وعلى السكينة، ونقاء الحوار، في فضاء بعيد عن الضوضاء والتلوث، والتبديل الحراري.

تبدأ عملية التكييف الطبيعي بالفناء الداخلي، الذي يعد رئة المسكن فلقد تبين أن هذا الفناء، على الرغم من انفتاحه نحو الفضاء، يحقق حماية كاملة وعزلاً عن المناخ الخارجي وتأثيره الحراري وعن الهواء والرياح، والصوت والضوضاء والتلوث، ذلك إن الهواء الخارجي الحامل للحرارة والغبار، يحوم فوق الفناء دون أن يتسرب إلى العمق، ذلك بسبب عدم وجود منافذ تساعد على تحريك هذا التيار الهوائي وجذبه إلى الخارجي.

ثم إن الفناء وقد قام بوظيفة الرئة، ساعد على التمتع به من خلال الإيوان المفتوح عليه، ومن خلال الزخارف الجدارية المحيطة به، ثم من خلال نباتات الزينة، من أشجار الليمون والكباد والنانرج والمانوليا والياسمين والورود. ومن خلال البرك المائية التي يتدفق إليها الماء من خلال الصنابير والنوافير، فيساعد على ترطيب الهواء الجاف.

ولم تحفل دمشق بملاقف الهواء (البادغير) التي تساعد على تهوية وتكييف البناء، وذلك بسبب المناخ المعتدل الذي لا يتوفر في مدن أخرى، مثل دبي وأصفهان، ولكن لا بد من ذكر ميزات هذه الطريقة في التكييف الطبيعي الرخيص، والتي أهملت في الأبنية الحديثة لكي تحل محلها وسائل التكييف الاصطناعية والعالية الكلفة.

